بغيابها لعدم دعوتها... تكريم غير لائق لسميرة توفيق

محمد المصري: مطربة كبيرة وصاحبة مدرسة غنائية خاصة لا يضاهيها أحد

من المعرض الأرشيفي للفنانة سميرة توفيق

الباحث محمد المصري

من الأمسية الغنائية

وائل العدس- تصوير طارق السعدوني

عبر كل الأمكنة والأزمان، كرمت سورية عمالقة الفن المحلي والعربي تكريماً يليق بعراقة بلد كان ولا يزال ملهماً ومصدراً للفن والثقافة والإبداع في جميع المجالات رغم الحرب الإرهابية الظالمة.

مساء الإثنين الماضي، أقامت وزارة الثقافة ندوة تكريمية للفنانة سميرة توفيق في المركز الثقافي في أبو رمانة، بغياب صاحبة العلاقة التي لم يكن لها أي علم بهذا التكريم، حيث لم تتم دعوتها لتكون شاهدة على تكريمها!

فحوى الفعالية لم يكن ندوة كما جاء في الدعوة، فالندوة عادة ما تكون قضية يناقشها أشخاص مختصون يعبرون فيها عن وجهة نظرهم، ثم يمنحون الجمهور فرصة للنقاش، لكن الفعالية افتتحت بمعرض أرشيفي غني جداً للباحث محمد المصري تضمن أسطوانات وأشرطة كاسيت قديمة لأجمل ألبوماتها وملصقات لأهم أفلامها وصوراً نادرة جداً بالأبيض والأسود من دون مونتاج من عدة أفلام لها، ولقاءات صحفية معها.

مديرة التراث الشعبي أحلام الترك قرأت معلومات عامة عن مسيرة الفنانة المكرمة، على حين كان من الأفضل أن يشارك الباحث محمد المصري بمعلومات وقصص وحكايا وذكريات لا يعرفها الجمهور.

وتضمن برنامج الفعالية أمسية غنائية بقيادة وضاح رجب باشا بصوت المغنية صبا الجمال التي لم تنجح بالحد الأدنى في الوصول إلى قامة غنائية كبيرة مثل سميرة توفيق، وكان من الأجدى توجيه اختياراتهم نحو فنانين أكثر موهبة، وعلى سبيل المثال لا الحصر الفنانة السورية الشابة سهر أبو شروف التي سبق لها أن غنت أكثر من مرة من أغنيات سميرة توفيق.

توفيق الإمام: غنت اللون البدوي الذي يعد جزءاً من التراث الفني السوري

لون متفرد

في الأرشيف الخاص للباحث محمد المصري آلاف الوثائق الفنية عن معظم الفنانين في عالمنا العربي، خمسون عاماً ونيف وهو يجمع ويبحث ويوثق في الصحف والمجلات والإذاعات وقنوات التلفزة العربية، يسمع ويدوّن ويقتني الكتب والأسطوانات والكاسيتات والفيديوهات وإعلانات الأفلام وبطاقات تذاكر الدخول إلى السينما والحفلات.

جمع أرشيفاً كاملاً يعجز عن القيام بجمعه كثير من المؤسسات الفنية، ومن خلال هذا الأرشيف أقام عدداً من المعارض الفنية، وكتب للصحف المحلية والعربية، وأجرى عدداً من اللقاءات وحاز عدداً من الجوائز التقديرية والتكريم.

ووفقاً للكتيب الخاص بالفعالية قال: «لم أكن في أبحاثي مجرد ناقل للأخبار التي تدور في أروقة الفن عن الفنانين، بل كنت ممن يتابع الخبر ويتحرى مسيرته إلى أن أصل إلى الحقيقة، ثم أقوم بالتوثيق، ولهذا فقد استعان بخبرتي عدد من الباحثين في قضايا الفن، كما استفادوا من الأرشيف الذي وثقته.

وفي تصريحه لـ«الوطن»، أكد المصري أنه اتجه لإقامة هذا المعرض لأن سميرة توفيق اشتهرت بلونها البدوي المتفرد والبديع، ولأنها مطربة كبيرة لا يضاهيها أحد بهذا اللون وصاحبة مدرسة غنائية خاصة.

وكشف أنه كان يحضر جميع أفلامها ويلتقط لها صوراً ويقتني ملصقات وبروشورات أسطوانات موسيقية حتى استطاع جمع ما يقرب من ٣٠٠ صورة من مسيرتها الفنية الطويلة، وهي صور نادرة جداً.

وأشار إلى أنه يتحضر لإقامة معارض فنية لأكثر من عشرين فناناً سورياً وعربياً، منهم دريد لحام وشادية ومحمد عبد الوهاب وهدى سلطان وأم كلثوم وكارم محمود وفيروز وعبد الحليم حافظ.

وطالب بأن نعلم الأجيال الحالية الطرب الأصيل بعيداً عن أغنيات العصر التي لا تحمل كلمات ولا لحناً ولا صوتاً، مع وجود بعض الاستثناءات القليلة.

إرث وتاريخ

معاون وزير الثقافة توفيق الإمام قال في تصريح للصحفيين إن التراث في كل دول العالم إرث وتاريخ لحضارة هذا العالم، ونحن في سورية نحتفل بهذا النوع الثقافي الجميل من خلال تكريم إنجازات بعض المفكرين والمثقفين والعلماء والفنانين.

وأضاف: سميرة توفيق قامة ثقافية وفنية كبيرة، عاشت في سورية لفترة زمنية طويلة، وغنت اللون البدوي الذي يعد جزءاً من التراث الفني السوري.

وشدد على أن وزارة الثقافة دأبت منذ ثلاث سنوات على تكريم هذه القامات من خلال أنشطة ثقافية فكرية فنية تقام في مكتبة الأسد والمراكز الثقافية.

حضور لافت

وجاء في كلمة لمديرية التراث الشعبي ضمن الكتيب الخاص بالندوة: يأتي تكريم الفنانة سميرة توفيق في سياق رسالة المديرية التي تسعى لتكريم المبدعين الذين تركوا بصمة في الثقافة الشعبية السورية والعربية بمختلف مجالاتها، والفنانة اللبنانية قامة فنية متميزة لها خصوصيتها في عالم الغناء العربي، إذ قدمت ما ينتمي إلى بيئتنا التراثية الثقافية، سواء ما أخذته من التراث مباشرة أم ما اختارته في أغانيها الخاصة من ألحان وكلمات تحاكي اللون الغنائي البدوي، وإن تسليط الضوء على هذا الأسلوب الذي أوشك أن يندثر لأسباب متعددة هو أمر مهم وخطوة على طريق توثيق تراثنا.

وفي تصريح لـ«الوطن» قالت مديرة مديرية التراث الشعبي أحلام الترك إن المديرية تسعى لتوثيق القامات التي احتفت بالغناء البدوي التراثي، حيث تفردت سميرة توفيق بهذا اللون، ليس لاختيارها الكلمة التي تنتمي إلى اللهجة البدوية واللحن الذي له جذر بدوي، بل أضيف إن حضورها على المسرح كان لافتاً بمرافقة آلات موسيقية شعبية مثل المجوز والدف والمزمار والطبل، وتتوج ذلك باختيارها أزياء تنتمي إلى بيئة تراثية.

نجمة الأغنية

أما الموسيقار هادي بقدونس الذي رافق الفنانة المكرمة في عدد من الحفلات فقال لـ«الوطن»: هي فنانة عظيمة وعريقة ونجمة الأغنية البدوية التي تربينا عليها وجعلت الناس ترددها، وبالفعل تستحق التكريم وتشييد تمثال لها بكل الدول العربية لأنها نجحت بصوتها بدخول قلوب الناس.

سميرة توفيق

ولدت الفنانة اللبنانية سميرة توفيق يوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول عام ١٩٥٣، اشتهرت بالغناء باللهجة البدوية؛ وقدّم لها الشعراء والملحنون من لبنان وسورية والأردن العديد من الأغاني التي نالت شهرة عربية، منها أغنيات «حسنك يا زين» و«أسمر خفيف الروح» للفنان توفيق النمري التي كانت بداية شهرتها.

بدأت تظهر موهبتها الغنائية عندما كانت في السابعة وعندما أصبحت في الثالثة عشرة أخذت تحيي الحفلات الغنائية على مسارح بيروت الخاصة، وبعدها تنقلت في عدد من المناطق اللبنانية منها عاليه حيث وقفت على أحد أهم مسارحها في تلك الحقبة «مسرح طانيوس» تغني لسعاد محمد وليلى مراد.

كانت عائلتها ترافقها في تنقلاتها، فعرفت بالمطربة صاحبة الأسطوال السادس بعد انطلاقتها من بيروت أوائل الستينيات، تبنتها إذاعة الأردن الرسمية من خلال أغنية بعنوان «بين الدوالي»، فغنت عبر أثيرها مباشرة على الهواء للشاعر جميل العاصي، وبعدها تتابعت الأغاني وانتشرت أغانيها، وخصوصاً أنها تميزت بلهجتها البدوية ما أعطاها لوناً خاصاً.

تعاونت مع عدد من الملحنين والشعراء في لبنان والعالم العربي، وبينهم عفيف رضوان وعبد الجليل وهبي ومحمد محسن ورفيق حبيقة وإلياس الرحباني وملحم بركات وإيلي شويري ووسام الأمير وفيلمون وهبي الذي ربطتها بعائلته صداقة متينة.

التقت في بداياتها الملحن اللبناني توفيق البيلوني الذي شجعها على الغناء، فاستوحت منه اسمها الفني وقالت له: «أنا سميرة والتوفيق من الله».

أحيت العديد من الحفلات في أرجاء العالم، فافتتحت «أوبرا هاوس» في مدينة ملبورن الأسترالية إلى جانب الفنان وديع الصافي، وقد حضر الحفل الذي أقيم أوائل السبعينيات ملكة إنجلترا إليزابيت الثانية، كما شاركت في انطلاق النادي اللبناني المكسيكي فكانت المطربة العربية الوحيدة التي مثلت بلادها هناك بدعوة من الجالية اللبنانية فيها، وحازت المفاتيح البرونزية والذهبية لعدة بلدان بينها فنزويلا التي كرمها مجلس النواب فيها، وكانت تتمتع بقاعدة شعبية كبيرة فيها، كما أحيت حفلات في فرنسا وإفريقيا ولندن.

تعرضت لعدة مشكلات صحية، فالنكسة الأولى كانت عام ١٩٦٥ أثناء أدائها دور البطولة في فيلم «بدوية في باريس» وعرض عليها يومها المخرج محمد سلمان أن تقوم ممثلة بديلة منها بقفزة عن صخرة مرتفعة فرفضت وأصرت على أن تقوم بالقفزة بنفسها فأصيب ظهرها بكسر أجبرها على التوقف عن العمل لفترة، وخصوصاً أن الأطباء اكتشفوا لاحقاً بأن معدتها أصيبت من جراء سقوطها على الأرض بارتجاج، فانقلبت رأساً على عقب واضطرت للخضوع لجراحة لإعادتها إلى مكانها الطبيعي.

في رصيدها الفني مسلسلان هما «فارس ونجود» ١٩٧٤ و«سمرا» ١٩٧٧، على حين شاركت في بطولة الكثير من الأفلام منها «البدوية العاشقة» ١٩٦٣ و«بنت عنتر» و«حسناء البادية» ١٩٦٤ و«بدوية في روما» ١٩٦٥ و«القاهرون» ١٩٦٧ و«عروس من دمشق» ١٩٧٣ و«عنتر فارس الصحراء» و«فارس بني عبس» ١٩٧٤ و«الاستعراض الكبير» ١٩٧٥ و«أيام في لندن» ١٩٧٦.

وفي رصيدها الغنائي عشرات الأغنيات لعل أبرزها «يا هلا بالضيف» و«أسمر خفيف الروح» و«عالعين موليتين» و«باش تصبوا هالقهوة» و«لا باكل ولا بشرب» و«أيام اللولو» و«أسمر يا حلو» و«بسك تيجي حارتنا» و«وادان وادانا» و«يا جاي من حلب».

فرقة «وا موسيقاه».. إحياء الأغاني التراثية بمواهب شابة

«فراس القاضي» لـ«الوطن»: الدافع أكبر لتأسيس الفرقة هو ما يدعى بتطوير التراث من قبل بعض الفرق الغنائية

رامه الشويكي

مجموعة من الأصوات والمواهب الموسيقية الشابة جمعها حب الموسيقا والغناء، ووجدت في «وا موسيقاه» مساحةً للحب والتعبير عن الانتماء من خلال إحياء الأغاني الطربية والمحافظة على التراثية منها بأمانة ومسؤولية.

«الوطن» التقت قائد الفرقة ومديرها الصحفي «فراس القاضي» الذي أوضح لـ«الوطن» عن تكوينها ورسالتها للجمهور في حوار خاص جاء كالتالي:

• متى تأسست الفرقة؟ وما عدد أفرادها حالياً؟

تأسست عام ٢٠١٦ بشخصين، عازف عود وغيتار، وكانت تتجه فقط للموسيقا دون غناء، ثم تحولت إلى كورال، لأنني منذ ما يقارب العشرين عاماً عملت في محافظتي دير الزور بهذا الفن، ومن خلال صفحة خاصة على مواقع التواصل الاجتماعي وضعنا إعلاناً لضم المزيد من المواهب للفرقة التي تعاني كغيرها من تغيير في حجم الكوادر الذي ينقص ويزيد تبعاً لظروفهم الشخصية، واليوم يتراوح عدد أفرادها بين ٢٥ إلى ٣٠ بين عازفين ومؤدين من فئة الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٠ و٢٥ عاماً أغلبهم طلاب جامعات أو خريجون منهم أطباء ومهندسون من مختلف المحافظات السورية ويميزهم التنوع.

• لماذا اتجهتم للأغاني الطربية والتراثية؟

في البداية اتجهنا إلى إحياء الأغاني الطربية القديمة أو ما يسمى بالفن النظيف، لأن لدي هاجس تنمية الذائقة الفنية والثقافية لدى الجمهور التي كلما نمت لديهم تحققت الفائدة للمجتمع ككل، إلى جانب الموضوع الفكري الذي هو أساس نهوض المجتمعات، ونحن اليوم نمر بفترة ترد فكري واستسهال شديد من البعض للفنون المتنوعة من موسيقا وشعر بسبب مواقع التواصل الاجتماعي التي كما أعطت منصة للمبدعين، أصبحت منبراً لأشخاص فارغين لتقديم منتجهم السخيف، وبالتالي بدأت الفرقة مع إحياء الطرب الأصيل عن طريق فئة الشباب حصراً، وهذا الموضوع هو الذي وسع الفرقة، فاستقطبت المزيد من الشباب الموهوبين عن طريق الفيديوهات المعروضة على الصفحة، وبدأنا مع وصلة طربية مؤلفة من مجموعة أغانٍ لمجموعة مطربين تدربوا لتقديمها.

• ما دوافعكم للتركيز على اللون الغنائي التراثي وكيف انعكس كونك ابن الفرات على نوعية الأغاني في الفرقة؟

التراث هوية وعندما نغني التراث الفراتي أو الساحلي نعكس هوية تلك المنطقة في تلك الفترة، فالتراث الغنائي هو أحد أهم عناصر التراث اللامادي، ومثله مثل الآثار الملموسة، وهناك العديد من المناطق السورية تراثها مظلوم لا يعرفه الجمهور ومنه تراث المنطقة الشرقية (الفراتي)، وكوني ابن دير الزور أعرف التراث الغنائي لتلك المنطقة، وهو غني جداً لكن لايعرف عنه الجمهور سوى جزء بسيط، لذا أردت إيصاله للجمهور من خلال الفرقة، وبالطبع ليس فقط التراث الفراتي بل نغني تراث حلب، الساحل، القنيطرة، درعا وغيرها، ونعتمد التنوع في تناول الأغاني التراثية من كل المناطق السورية.

• ما رأيك بتغيير أو تطوير ألحان الأغاني التراثية من قبل بعض الفرق الغنائية والتي تلقى رواجاً لدى الجمهور في كثير من الأحيان وما أسلوبكم في تقديمها؟

الدافع أكبر لتأسيس الفرقة هو ما يدعى بتطوير التراث من قبل بعض الفرق الغنائية، وهو ليس أكثر من استباحة لهذا التراث وتشويه لهذه الهوية، عندما يأتي أحدها ويغني أغنية معروفة مع تغيير ألحانها، ويقدمها للجمهور الذي لا يعرفها بالأساس، وهنا أقصد جيل الشباب والمراهقين الذين هناك قطع بينهم وبين تراث بلدهم الغنائي بسبب عدم اهتمام الإعلام الذي لا يعرض الأغاني التراثية الأصيلة، وحتى عندما يعرضها فإنه يعرض ما هو دون المستوى المطلوب، بالإضافة إلى ازدياد عدد هذه الفرق التي تغير الأغنية وتطرحها للجمهور من جديد، كل هذا جعلني أخاف على التراث الحقيقي وأسعى للحفاظ عليه، فالجيل الحالي لا يعرف تراثه الأصلي وعندما نقدمه له بلحن جديد فإنه يحفظه وبالتالي يموت التراث السابق، وبتغييره تتم سرقة جهد أناس كالملحنين الذين لا يزال بعضهم على قيد الحياة.

تطوير الأغاني التراثية لا يكون كذلك، بل نحن نقدم الأغنية باللحن نفسه و(الميلودي) ونضيف له صوتاً ثانياً يسمى موسيقياً (هارموني)، بحيث يغني الشباب أو الشابات في الفرقة اللحن الأصلي ونضيف له، مع الحفاظ بشكل كامل على اللحن الأصلي لأنه أمانة.

• أتاحت لكم (الأمانة السورية للتنمية) إمكانية التدريب في منارة باب شرقي كل يوم جمعة ما أهمية هذه الخطوة في تطوير عملكم وما الصعوبات التي تواجهونها؟

نعاني من عدم وجود إمكانيات مادية، نفتقد اللباس، الأدوات، الكاميرا، جهاز صوت، ومنذ أقل من ستة شهور كنا نتمرن بمجهود شخصي في مطاعم باب توما ويتقاسم أفراد الفرقة التكلفة المادية، مما يحملهم المزيد من الأعباء كطلاب جامعيين، لكنهم يصرون على الاستمرار لأنهم مؤمنون بأهميتها ووجودها، ويعرفون مدى إيماني بها، كنا نتدرب في فترة الأزمة والقذائف حولنا، ولطالما أوقفنا التسجيل بسبب أصواتها، ورغم أننا طلبنا الدعم المادي من عدة جهات لتطوير العمل، لكن دون جدوى، إذ لا توجد لدينا ثقافة رعاية المنتج الثقافي، وعن طريق الصدفة كوني أعمل صحفياً، وبينما كنت أكتب مادة صحفية عن إنجازات قسم التراث اللامادي في الأمانة السورية للتنمية، حدثتهم عن الفرقة، وقدموا لنا المساعدة من خلال توفير مكان هو منارة باب شرقي للتدريب مجاناً في أوقات محددة يوم الجمعة، وشاركنا بدعوة منهم في مهرجان (قطاف الوردة الشامية في قرية المراح) وقدمنا عرضاً غنائياً، وموضوع المكان الذي قدمته لنا الأمانة ساعدنا جداً، هم تعاملوا معنا ولايزالون بمنتهى الرقي، كما دعينا للمشاركة في عدة فعاليات دون أن نلبي الدعوة لأنني بصراحة أخاف من الانطباع الأول عن الفرقة من الجمهور والذي لن يتحقق بالشكل المطلوب بسبب نقص الإمكانات.

• ما الرسالة التي تسعى الفرقة لإيصالها كونكم تشكلون ملتقى للمواهب الشابة وتحافظون على التراث في آن واحد، وماذا تقول للجمهور؟

رسالتي أن تدخل هذه الأصوات لكل بيت، لدي حلم عربي وربما عالمي تمنعني عنه الإمكانات البسيطة، لأن الفرقة تحوي أصواتاً جداً جميلة، نعمل بإتقان وضمير، أبذل جهداً كبيراً مع العازفين والمؤدين لتكون الأغنية مصقولة وجميلة كما ينبغي، لكل ما يراه المتابعون بكاميرا صغيرة أو كاميرا الهاتف المحمول، فكيف الأمر إذا ما توفر لنا ما نحتاج، وأسعى لإعادة تنمية الذائقة الفنية السورية تحديداً، ونرغب بأن نجول جميع المحافظات، وأن نصل إلى المستوى العربي لننشر التراث الجميل ونعيد إحياء الطرب الأصيل في كل مكان، وأقول للجمهور: لا تقبل بكل ماتسمعه، حاول أن تنتقي، وليس كل ما يقدم هو تراث، التراث الأصلي موجود والفضاء المعرفي متاح للجميع، ويمكنك أن تختار بين سماع الأغنية المشوهة والأصلية، أبحث عن التراث الحقيقي لأنه انتماء وهوية ولا تقبل بتشويهه باستسلام.

ويختتم «القاضي» حديثه لـ«الوطن» قائلاً: نعتمد في عملنا على البحث والجهد الشخصي، وسؤال الأشخاص من أبناء كل منطقة سواء الأصدقاء أم أفراد الفرقة عن أصلها وتاريخها قبل تقديمها، ونحافظ على المصدر من خلال كتابة اسم الأغنية، مغنيها، ملحنها، كاتب كلماتها عند عرضها على الصفحة، وبالتالي نقوم بتوثيق الأغنية التراثية، لأننا نشتغل التراث كما هو، وتحوي صفحة «فيس بوك» الخاصة بالفرقة على ١٢ ألف متابع حتى اليوم وهذا يعتبر إنجازاً بالنسبة لنا خلال ٣ سنوات.

من الأصوات الشابة في الفرقة التقينا روزيت خلوف ٢٥ عاماً مهندسة ميكانيك التي تقول عن تجربتها مع «وا موسيقاه» قائلةً: أغني منذ الصغر ولكن للأسف لم أتعلم الموسيقا، منذ سنتين تقريباً انضممت للفرقة لأنني أحب الموسيقا، ساعدتني في تنمية موهبتي وتمكنت من غناء جميع الأنماط بعد أن اكتفيت بنمط محدد مثل أغاني فيروز، جوليا بطرس أو ماجدة الرومي، لكن مع تواجدي في الفرقة امتلكت الجرأة لأغني الأغاني الطربية القديمة والتراثية التي أصبحت أحبها أكثر من أي شيء، علينا أن نعيد للجيل الجديد القليل من الحس الموسيقي المرهف لاسيما بالكلمات والألحان بعيداً عن تلك الرائجة حالياً.